الفصل السابع

شخصيات الأوديسّا

تمهيد

تحتوى الأوديسا كالإلياذة على نوعين من الشخصيات آلهة وأناسى . فأما الآلهة فهم أنفسهم الذين مروا بنا فى الإلياذة ، ولـكنهم يظهرون هنا بمظاهر تختلف كثيراً عن مظاهرهم هناك . وقد ألح الأستاذان : « بيرج » و « بنچامان كُنْستان » على إبراز هذا التباين بين أخلاق أولئك الآلهة وطباعهم وعواطفهم فى القصيدتين بهيئة مُغالية ، الأول فى كتابه « تاريخ الأدب الإغريقى » ، والثانى فى كتابه « عن الدين » . ويمكن أن نجمل هذه المفارقات فيما يلى : (١) ليس آلهة الأوديسا منقسمين على أنفسهم كآلهة الإلياذة ، وإن كنا قد رأينا پوسيذون قد شذ عن الآخرين ، فأعلن عداءه لأوديسوس ، ولـكنه لم يخاصم بقية الآلهة من أجل هذا الشعور كما حدث فى الملحمة الأولى . وفوق ذلك فإن هذه الخصومة قد سويت ، أو قل : إن آثارها قد زالت فى الأنشودة الثالثة عشرة .

ولا ريب أن السبب فى هذا هو ميل أهل العصر إلى ستر الخصومات التى كانت تقع بين الآلهة وإن كان الجميع يؤمنون بها ، ولا يجرؤ أحد منهم على إنكارها ، فحالت التقوى بين المؤلف وبين التشهير بالآلهة فصورهم متحدين ، وهذا النوع من الرقى الدينى كما أسلفنا فى الفصل السابق . ومما يلفت النظر فى هذه النقطة هو أننا لم نر للأدعياء إلاهاً يحميهم ويناصرهم ، ويمكن أن يعزى السبب فى هذا إلى أحد فرضين :

الأول أن المؤلف لم يشأ إظهار النفور بين الآلهة انعطافاً منه إلى تضييق هُوَّة الخلاف بينهم بقدر المستطاع ، لأن النفور نوع من الطفولة التى لاتليق بالآلهة .

والثانى أن العصر قد تقدم فى طريق الأخلاق السامية إلى حد أن المؤلف رأى أن من الرذيلة التى لايصح أن يتصف بها الآلهة الانتصار للأدعياء المتعسفين . وقد دعونا هذا رقيا، لأن مؤلف الإلياذة لم يتحرج منه فصور لنا آلهة يحمون باريس خاطف هيلينيه و يناصرونه فى ظلمه و يقفون إلى جانبه رغم جبْنه ووضاعته ، أو يؤيدون پنداروس مع اعتدائه على المعاهدة التى عقدت بين الفريقين المتحاربين ومسارعته إلى فسخها ، ولـكن مؤلف الأوديسا أبى أن تؤيد السماء الرذيلة أو تناصر الباطل ، وكلا الفرضين تقدم وسير نحو الـكمال .

(٢) يلاحظ قارئ الأوديسا أن ظهور الآلهة فيها أقل بكثير منه فى الإلياذة . أما تلك المظاهر المرعبة التى طالما رأيناها أو سمعناها مرتاعين هناك فلم نعد نلتقى بها هنا ، وذلك مثل أريس ، الذى صوره لنا مؤلف الإلياذة فى المعركة عملاقاً هائلا يفوق صوته فى الإزعاج أصوات عدة آلاف من الأناسى يصرخون صرخة واحدة ، أو « هيريه » تصيح فى التروادیين فتفزعهم وترعد فرائصهم ، أو « أپولون » فى غضبه ينحدر من الأولمپوس شبيهاً بالليل فى رهبته ووحشته . كل هذا لم نعد نلتقى به فى الأوديسا إلا كذكريات تمر بنا عرضاً لاستكمال الوصف أو التشبيه ، وإذا بدا الآلهة فى مظاهر مادية ألفيناهم عاديين لايرافقهم الإفزاع ، ولا يلوح عليهم الإرهاب .

على أن ظهور آثارهم ونتائج أفعالهم كثيراً مايفوق فيها ظهور شخصياتهم المحسة إذا استثنينا أثينيه التى كانت تظهر لأوديسوس عند ما يكون فى حاجة إليها .

(٣) إن رسول الآلهة فى الأوديسا هو « هرميس » على حين كانت « إيريس » فى الإلياذة هى رسولتهم وموضع ثقتهم . ولا شك أن هذا تغيير مقصود للمؤلف و إن كان المحدثون إلى الآن لم يعثروا على سببه فيما نعلم .

هذا كله فيما يتعلق بالآلهة ، أما الأناسى فمجمل الفرق بينهم و بين أناسى الإلياذة هو أنهم هنا أقرب إلى مستوى الإنسانية منهم هناك ، فبدل أن يصورهم المؤلف هناك أنصاف آلهة يجرؤون على السماء بإهاناتهم وتحدياتهم ، بل بمحاربتهم الآلهة وطعنهم إياهم بحرابهم ،

وإرغامهم إياهم على الفرار ، نراه هنا يرسم الأبطال فى حدود محصورة لايتعدونها ودوائر ضيقة لايتجاوزونها ، يخضعون لأوامر الآلهة ، وينزلون عند رغباتهم ، ويلتمسون منهم العون فى ضراعة واستكانة ، أو فى عتب رقيق يبدو من خلاله أمل الأدنى فى عطف الأعلى ، ولا نلحظ من عدوان البشرية على ما فوقها فى الأوديسا إلا فقء أوديسوس عين الكِكلوپس ابن پوسيذون ، ولم يكن ذلك إلا لظهوره كوحش مزعج يفترس أصحابه ويهم بالفتك به .

غير أن دنو أبطال الأوديسا من الإنسانية ليس معناه أنهم أبعد عن المثل العليا من أبطال الإلياذة ، كلا ، فهم جميعاً نماذج تحتذى ، كل فى بابه كماسيجىء ذلك مفصلاً . والآن إليك النوع الأول وهو الآلهة مرتبين حسب أهمية الأدوار التى لعبوها فى الأوديسا .

(١) الآلهة

١ — أثينيه

يختلف الدور الذى لعبته أثينيه فى الأوديسا عنه فى الإلياذة ، فبينما نشاهدها هناك ـ ككل الآلهة ـ تمنح رعايتها استناداً إلى تقاليد أسطورية ، أى أن أبطال المدن التى هى مقدسة فيها أكثر من غيرها هم الذين يفوزون بعطفها ورعايتها ومناصرتها ، نراها هنا تمنح هذه الرعاية مجاراة للون من ألوان التفلسف الراقى الذى كان قد بدأ يعرف مكانة العقل البشرى ويجله ، والذى يمكن أن نجمل غايته فى هذه العبارة : إن أثينيه إلاهة العقل والحكمة ترعى أوديسوس مثال العقل والحكمة ، وإن العناصر الأولية التى تألفت منها صداقتهما هى الذكاء والتبصر وبعد النظر . وإذاً ، فلم تعد الجاذبية التى تصل بين الإلاه والإنسان تنشأ من نسبة هذا الأخير إلى مدينة معينة لها حظوة خاصة عند ذلك الإلاه ، وإنما أصبحت تنشأ من تقارب الطبائع وتماثل الفطر ، وليس أدل على ذلك من دعابة أثينيه مع أوديسوس

حين تمثلت له فى صورة أحد الرعاة ولم يعرفها فأراد أن يخدعها فى شخصيته وقد أعجبها ذلك منه ، لأنه كان صورة مصغرة لسياستها بين الآلهة ، وقد سجلت وجه الشبه بينهما فى تلك الدعابة حيث خاطبته قائلة :

« من ذا الذى يفوقك فى المهارة إلا إلاه مع الشك فى ذلك أيضاً ؟ ألا تريد إذاً ، حتى فى أرض وطنك أن تتخلى عن الحيل وعن الألفاظ الخداعة التى هى عزيزة عليك منذ ولادتك ! ولكن لندع هذا الكلام فنحن كلانا نعرف هذه الحيل . وكما أنك تفوق فيها جميع بنى الإنسان بالحكمة والفصاحة ، أنا أيضاً أتباهى بأنى أفوق فيها جميع الآلهة . ألم تعرف إذاً بالاس أثينيه بنة زوس ؟ ! أنا التى أحضر دائماً أعمالك وأحميك ! أنا التى جعلت جميع الفيكيان يُعزُّونك . تعال إذاً ، لكى أنصحك وأعينك على إخفاء الثروة التى أوحيت إلى الفيكيان أن يعطوك إياها قبيل عودتك إلى ديارك[1] » .

لا ريب أنك توافقنا على أن هذه العبارات تدل دلالة واضحة على استحكام الصلة بين أثينيه وأوديسوس إلى حد يرسم لنا صورة حكمة السماء تحنو على حكمة الأرض وتكلؤها بعين رعايتها الأبدية .

وهناك ميزة أخرى تمتاز بها أثينيه فى الأوديسا عليها فى الإلياذة ، وهى أنها لم تعد هنا تلك الإلاهة القوية المخيفة التى تأخذ هنا بحظ إيجابى وافر من المعركة ، وتصعد فوق عربة « ذيوميذيس » فتكاد تحطمها ، وإنما قوتها هنا توشك أن تكون داخلية معنوية تنحصر فى التشجيع وتثبيت الإرادة ، ومحو اليأس من النفوس ، وتقوية الأمل والطمأنينة على النتائج ، والوحى بحسن التصرف والتحذير من الوقوع فى الأخطاء والأخطار ، ولا نراها تساهم فى المعركة إلا مساهمة سلبية تقف عند حد إطاشة سهام الأدعياء عن أوديسوس .

---

(١) انظر الأنشودة الثالثة عشرة من الأوديسا .

٢ ـ بوسيذون

هو شقيق زوس ، وقد كان البحر نصيبه حينما اقتسم مع أخويه ممالك الكون فرضى به واطمأن له وأسس فى قاعه قصراً فخماً أقام فيه وصار له الأمر والنهى على كل ما يمر فوق سطح المياه . وهو إلاه أخرق أحمق شديد الميل إلى الانتقام ، ولكنه انتقام راق على طريقة الأوديسا تظهر آثاره ونتائجه دون أن نلتقى بصاحبه مرغياً مزبداً ، منذراً متوعداً .

٣ ـ بُرُتيوس :

وهو أحد آلهة التنبؤات والأخبار ، وكان كثيراً ما يلبس صوراً مختلفة ، ويتخفى تحت ألوان متباينة ليفر من الذين يحرجونه ويضايقونه بكثرة أسئلتهم عن حوادث الغد وخفايا المستقبل ، وهو الذى أخبر مينيلاؤوس فى مصر بمقر أوديسوس .

٤ ـ كالبسو

هى إحدى إلاهات البحر الصغيرات أو بعبارة أدق هى من صنف من آلهة الدرجة الثانية يقال له « نَمْف » وهى التى كُلِفت بأوديسوس وأسرته فى جزيرتها سبعة أعوام لا لتسىء إليه ، ولكن لتنعم بحبه ، فلما أمرت بفك اعتقاله ، ثارت فى نفسها ثائرة الغضب ضد زوس وضد جميع الآلهة ورمتهم بالحسد والغيظ وجعلت تصيح قائلة :

« إنكم لظلمة أيها الآلهة ، وإنكم لأكثر من غيركم حسداً للآلهة الآخرين . أنتم تحسدون الإلاهات اللواتى يحتضن ـ فى صراحة ـ الرجال الذين يصطفينهم كأزواج أعزاء ، وهكذا حينما اختطفت (إيوس[1]) ذات الأنامل الوردية (أريون) حسدتموها أيها الآلهة الذين لن تزالوا أحياء وظللتم كذالك إلى أن اخترقت جسمه سهام أرتيميس العفيفة

(١) إيوس إلاهة الفجر التى كانت تفتح الباب فى كل صباح لعربة الشمس .

ذات العرش الذهبي . وهكذا أيضاً حينما خضعت (ديميتير) ذات الشعر الجميل لعاطفتها النفسية فارتبطت بروابط الحب مع (يازون) فوق أرض حديثة الحرث فلم يكد زوس يعلم ذلك حتى قذفه بصاعقة بيضاء قتلته لساعته . وهكذا الآن أنتم تحسدوننى أيها الآلهة لأنى أحتفظ إلى جانبي برجل قابل للفناء ألفيته وحيداً فوق بقايا سفينة فالتقطته بعد أن قذف زوس سفينته السريعة بصاعقة شطرتها شطرين فى وسط البحر المظلم ، وكان كل أصدقائه الشجعان قد هلكوا ، وكانت الرياح والأمواج قد ألقت به إلى هنا فالتقطته وأحببته ووعدت نفسى بأن أصيره خالداً ، وأن أجعله إلى الأبد فى مأمن من الشيخوخة ، ولكن ليس بمسموح لأى إلاه آخر أن يقاوم إرادة زوس العاصف . ومادام يريد أن يتيه أوديسوس من جديد فوق سطح البحر الهائج فليكن ذلك ، غير أنى لن أتولى أنا إرساله ، إذ ليس لدىَّ سفن ولا رفاق يقتادونه فوق مياه البحر الواسعة ، وإنما سأرشده بكل اغتباط ، ولن أخفى عنه ماينبغى أن يفعله لكى يصل سالماً إلى أرض الوطن[1] .

غير أن كاليپسو عند ما رأت أوديسوس يأخذ الأهبة للرحيل ملك عليها الهوى كل مشاعرها فظهرت لنا أقرب إلى المرأة البشرية منها إلى الإلاهة تسحقها الغيرة وتفقدها أخلاقها ، فتحملها على القدح فى پينيلوپيا والحط من جمالها وصفاتها ، ولكن يظهر أن تقاليد العصر لم تسمح للمؤلف أن يتبسط فى تصوير هذا الهوى فأجمله ولم يمعن فى الإلحاح عليه .

(ب) الأبطال

١ — أوديسوس

كان هذا البطل فى الإلياذة واحداً من أبطال كثيرين يكاد مستواهم يتعادل فى كثير من الاعتبارات ولا يوجد بينهم من الفروق إلا ما يوجد بين أهل الطبقة الواحدة من

(١) انظر الأنشودة الخامسة .

الخصائص التى تميز كل فرد منهم عن الآخرين ولكنه تميز معتدل لا يُشعر باتساع الهُوَّة بينهم . أما فى الأوديسا فالأمر على العكس من ذلك تماما ، إذ أن أوديسوس هو فيها نسيج الوحد ، وفريدة العقد . وليس معنى هذا أنه هو الشخصية الوحيدة التى يلتقى بها القارئ فى الأوديسَّا كلا ، بل هناك مثل عليا فى الوفاء والأمانة وكرم الأخلاق كپينيلُپيا وتيليماخوس ، وأسرة ألكينوؤوس وراعيي أوديسوس ، و إنما الذى نعنيه هو أنه ليس بين هؤلاء جميعاً من يمكن أن يوازى بأجا ممنون ، أو أيَّاس ، أو ، ذيوميذيس ، أو غيرهم من أبطال الإلياذة .

وقصارى القول أن المؤلف لم يضع نصب عينيه فى الأوديسا إلا أوديسوس ، ولهذا فقد أفرغ جهده فى رسمه حتى شخصه أمامنا ، وحدد لنا صفاته وأخلاقه تحديداً دقيقاً يجعلنا نتصور أنه يعيش معنا ، غير أن هذا المؤلف ـ إن لم يكن هو هوميروس ـ قد عثر على هيكل أخلاق هذا البطل مرسوماً فى الإلياذة حيث ألفاه شجاعاً ماهرا ، حكيما معسول اللسان ، قديراً على التصرف فى العبارات ، واللعب بالألفاظ ، فاستولى على هذا الهيكل وجسَّمهُ وجعله محور الأوديسَّا وقطب رحاها ، فصور لنا أوديسوس رجلا عبقرياً شجاعاً هادئ الطبع ، واسع الحيلة ، قوى الشكيمة ، صلب الإرادة ، زادته المحن قسوة وتحجرا ، وصيرته الآلام غير قابل للانزعاج ، ومحت من قلبه كل استعداد للتضعضع أو الخضوع لطوارئ الحدثان ، وحالت الحُنكة دون إذعانه للعواطف والأهواء ، فأصبح يسخر من الدموع تذرف على يديه ، ويهزأ بالقلوب تتفتت تحت قدميه ، ولا يلتفت إلا إلى غايته التى رسمها لنفسه ، وجعلها هدف سهمه ، ومحط أمله . وهذه كلها صفات بشرية موزعة على بنى الإنسان ، ولكنها تختلف عندهم كثرة وقلة باختلاف ما أوتوا منها من المواهب والحظوظ . غير أن الجديد المبتكر الذى أضافه مؤلف الأوديسا إلى هذه الشخصية والذى لا ينبغى إهماله هو تلك العاطفة الإنسانية السامية التى مزج بها كفاح بطله ، بل جعلها أساسه وغايته ، وهى عاطفة الحب الزوجى والأبوى والبنوى والوطنى ، تلك العاطفة التى لَوَّنَ بها الشاعر جهاد أوديسوس تلويناً يخلب النفوس و يأخذ بمجامع القلوب .

وما أبدع تلك اللوحة المؤثرة التى يرسم لنا المؤلف صورة أوديسوس فيها للمرة الأولى ، فنشاهده « طول اليوم جالساً فوق الصخور أو على رمال الشاطئ يستنفد قواه فى التألم والدموع والتأوهات ، ويحدق بنظراته إلى الأفق ، والعبرات تبلل خديه [١] » .

وأكثر من هذا أنه حين يحس أن كاليپسو تريد أن تحوله عن شعوره أو أن تقذف إلى نفسه بشىء من التردد بإلحاحها على إبانة الفرق بينها و بين زوجته و إظهار سموها عليها ، يقابل ذلك بإرادة فولاذية و يخاطبها قائلا :

« أيتها الإلاهة الجليلة لاتسخطى علىَّ من أجل ما سأقوله لك . أنا أيضاً أعرف أن پينيلوپيا ليس لها جمالك ولا قوامك الإلاهى ، إنها فانية وأنت خالدة وشابة أبدا ، ولكن الذى أريده وأشتهيه بدون فتور رغم هذا هو أن أعود إلى دارى وأن أرى يوم عودتى ساطعا ، و إذا كان هناك من الآلهة من لا يزال يريد إيلامى فى وسط البحر المظلم فإننى سأحتمل ذلك ، لأن لدى قلباً قد ألف الألم ، وقد احتملت فيما مضى كثيراً من المشقات والمتاعب فوق الأمواج وفى المعركة ، فليُضَفْ هذا الألم الجديد إلى الآلام التى نزلت بى سالفا [٢] » .

ولاريب أن هذا شعور نبيل لا يكاد المرء يعثر على مثله فى القصيدة الأولى ، وقد يذهب بنا التحليل إلى أبعد من هذا فننظر إلى رغبة أوديسوس بعين أكثر فلسفة فنلمح أن الذى كان يجذبه و يستولى عليه هو فكرة لاعاطفة ، وغاية عقلية لا هوًى قلبى ، ولدينا من روح العصر الجديد مايؤيدنا فى ترجيح الفكر على القلب ، وتغليب التأمل على الهوى ، والإرادة على العاطفة .

إذا كان كل هذا يروق و يَشُوق عند أوديسوس فهناك جانب آخر من أخلاقه لايقل جمالا وجلالا عن الجوانب المتقدمة ، وهو ضبط هذا البطل عواطفه ، وقهره أهواءه وميوله ، وكبته أحاسيسه ومشاعره بهيئة تشهد للمؤلف ، بل للعصر كله بضربه فى السياسة الحكيمة

---

(١) انظر رقم ١٥٥ ومابعده من الأنشودة الخامسة .

(٢) انظر رقم ٢١٥ ومابعده من الأنشودة الخامسة .

بسهم نفاذة لاسيما إذا كان هذا الكتب قد وقع من شخص عاد إلى وطنه بعد غيابه عنه عشرين عاما ، وهو زمن يجعل مقاومة العواطف متعسرة إن لم تكن متعذرة . فإذا أضفنا إلى هذا أن كتبه ذلك الشعور كان عاماً أى إزاء الأصدقاء والأعداء ، وأنه أهين أثناءه من خدمه وصنائع نعمته ، وأن هذه الإهانات لم تستطع أن تأخذ أى مظهر خارجى يبدو على وجهه ، وإنما كانت تهيج الدم فى عروقه لا أكثر ولا أقل .

وقد أخذ الأستاذ كرواز يه على المؤلف إفراطه فى تصوير ضبط النفس إلى هذا الحد الذى قد يتجاوز الفطرة الإنسانية ورماه بأنه وضع المثل الأعلى للحزم نصب عينيه وجعل يعدو خلفه مغضياً عما عداه ، فنأى بذلك عن الواقع المعتدل . وقد دفعته هذه المغالاة إلى الإيجاز فى وصف المنظر الذى انفجر فيه غضب أوديسوس و بدت فيه عواطفه فى الأنشودة الثانية والعشرين حينما نزع النقاب عن شخصيته وأخذ يصوب إلى خصومه الأدعياء لواذع كلماته قبل أن يسدد إلى صدورهم ونحورهم لواهب سهامه .

ونحن لا نوافق الأستاذ كرواز يه على رأيه هذا ، لأن أوديسوس حينما ضربه الراعى تردد وساءل نفسه عما إذا كان يسحق رأسه أو يكظم غيظه . وأخيراً غلب الثانية على الأولى شأن الحكيم الذى تصطدم فى نفسه شتى العواطف ، فيغلب ما يأمر به العقل منها و يسدل على الباقى ستار التناسى والكتمان . وكذلك حين قصت عليه زوجته مآسيها تأثر فى أعماق نفسه ، ولكنه طوى كشحه على هذا الشعور دون أن يدعه يبدو على وجهه . أما أخذه على المؤلف إيجازه فى تقريع الأدعياء فنحن نرى أن فيه شيئاً من التعسف ، لأن تلك الأبيات قد سيقت لوصف موقف كان السيف فيه أصدق أنباء من الكتب ، فيكفى أن ترافق السهام تلك العبارات القارسة التى نترجم لك منها على سبيل النموذج ما يلى :

« آه أيها الكلاب أنتم لم تكونوا تظنون أننى سأعود إلى دارى من بلاد « إليوس[1] » البعيدة حينما كنتم تخربون بيتى وتتعدون بالعنف على خادماتى وحينما كنتم

---

(١) تروادة .

تخطبون ود زوجتى ، وأنا حىٌّ دون الخوف من الآلهة الذين يقطنون السماء الواسعة ، ولا الانتقام فى المستقبل من أى إنسان . والآن أنتم جميعاً فى سلسلة الموت[١] » .

٢ ـ تيليماخوس :

هو شاب فى مقتبل العمر ور بيع الحياة ، نبيل الخلق عزيز النفس ، صريح شجاع جذاب ، ولا تسمح سنه بأن يقال عنه أكثر من ذلك ، إذ أن أخلاق الرجال التى تنشئها التجارب وتخلقها الحوادث لم تبد عليه بعد .

غير أن أخلاقه ـ مع الأسف ـ قد خضعت لتصوير أكثر من واحد من المؤلفين فألفينا فيها من التناقض مالا يسيغه العقل ولا يحتمله الاتساق . فمن أمثلة ذلك أننا نشاهده فى أكثر مناظر القصيدة يناصر والدته فى موقفها ، ويؤيدها بكل ما أوتى من قوة فى رفضها الزواج بأحد الأدعياء ، ويستحثها على الاستمرار فى أمانتها ووفائها لزوجها ، ولكن شد ما تكون دهشتنا حينما نرى المؤلف يسف بأخلاقه إسفافاً لا يليق بها ، فيحدثنا على لسان پينيلوپيا قائلاً :

« أما الآن وقد كبر ولدى فإنه يتوسل إلى أن أغادر هذه الديار ، لأنه ثائر من أجل ثروته التى يلتهمها الأدعياء[٢] » .

ولا ريب أن مؤلف هذه الأنشودة لو أنعم النظر فى بقية الأناشيد ، لتبين له أن ما نسبه إلى تيليماخوس فى هذا البيت السالف لا يمكن أن ينطبق على فطرته المرسومة فيها ، ولكن المؤلفين المتأخرين قد عودونا أن نعتقد أنهم لم يكونوا يكلفون أنفسهم عناء قراءة القصيدة التى ينتحلون فيها ما ينتحلون ،وهذا نوع من الاستهتار لا حد له .

---

(١) انظر رقم ٣٥ وما بعده من الأنشودة الثانية والعشرين .

(٢) انظر رقم ٥٣٠ من الأنشودة التاسعة عشرة .

٣ ـ اميوس :

هو راعى أوديسوس الأمين وخادمه الوفى الذى حفظ عهده ، ورعى نعمته ، فلم تغيره السنين حين تجهم الدهر لأرباب نعمته وقلب لهم ظهر المجن ، ولم يجار الراعى الآخر ولا الخادمات الخائنات ، وليس الدور الذى لعبه قد بلغ من الأهمية حداً كبيراً ، وإنما الذى شغل عدة مناظر من القسم الأخير من الأوديسا هو إخلاصه وثباته على العهد ، وحسرته على سيده ، وألمه لما تقاسيه سيدته من فراق زوجها ، ووقاحة الأدعياء ، وحنقه على أولئك الشبان الأراذل المتطفلين ، وسهره الدائب على ثروة مولاه ليدفع عنها ـ بقدر ما تؤهله له قوته الضئيلة ـ غائلة المغيرين ، وهو فوق ذلك خيّر سخى ، بشوش تقى ، نشيط ذكى ، متبصر حين تقتضى الظروف المجاملة ، تراه سلبيا يكظم غيظه حيث يقتنع بأن إبداء شعوره لا ينتج إلا الشر والسوء كما حدث فى موقفه بإزاء ميتيلتيوس راعى المعز إذ اعتدى على ضيفه الشيخ على مرأى منه ، ولكنه قوى عنيف عند ما يجىء أوان الشجاعة والمقاومة نشاهده فى المعركة يقف إلى جانب سيده موقف الشهم المحارب يساهم فى سرائه وضرائه ، ويربط مصيره بمصيره .

٤ ـ فِلوتيوس :

هو رئيس الرعاة وهو فى الأمانة والوفاء والثبات والشجاعة صورة مصغرة لصاحبه وإن كان الدور الذى لعبه ضئيلاً إلى جانب دور « أميوس » ولم يلح المؤلف على رسم أخلاقه كما فعل مع سالفه . ويبدو لنا أن أهمية هذين الراعيين هى تاريخية أكثر منها أى شىء آخر ، لأنهما يشرحان لوناً من وفاء طبقة الرعاة والخدم واحتفاظهم بالجميل فى تلك العصور .

٥ ـ لا إرتيس :

هو والد أوديسوس وكانت مرتبته فى الاحترام تتطلب منا البدء به ، ولكن النهج الذى سلكناه يقتضى أن نرتب الشخصيات حسب الأدوار التى لعبوها فى الأوديسا ، لا حسب درجاتهم الاجتماعية كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

يمتاز هذا الشيخ بالشجاعة وقوة الإرادة ، وصلابة العزيمة ، واحتمال النكبات ، والجلد فى مقابلة المحن والأرزاء ، والرضى بالأقدار . ومن خواصه أيضاً حبه لابنه الذى يبدو بهيئة مؤثرة وفاتنة فى نفس الوقت حين يلتقيان بعد هذه الغيبة الطويلة .

٦ ـ ألكينوؤوس :

هو ملك مثالى لشعب مثالى تحوطه الفخامة ، وتحفه الأبهة ، وتغمره الفخفخة وهو يعيش مع أسرته وشعبه فى سعادة ورخاء ينعمون بميسرات الحياة ، ويرفلون فى بحبوحة اللذة من أكل وشرب ورقص ولعب وغناء وموسيقى وإنشاد شعر وسماع قصص غريبة وروايات عجيبة ، وهو عدا ذلك بشوش سخى كريم الخلق ، رقيق الطبع ، يقدر أدب اللياقة ، وينزل المؤدبين منازل الاحترام والاجلال . وبالإجمال هو مثال للملوك كما أن جزيرته مثال للجزر صنعهما المؤلف من خياله ليجعلهما نموذجاً ينسج على منواله .

٧ و ٨ ـ نستور ومينيلاؤوس :

هما ذانك البطلان اللذان مررنا بهما فى الإلياذة ، ولكن مؤلف التيليماخوسية ـ وهو فى عصر متأخر ـ قد صورهما هنا ملكين عظيمين تحوطهما الأبهة والفخامة والرغد على غرار ألكينوؤوس ملك الفيكيان ويضيف إليهما غبطتهما بانتصارهما فى حرب تروادة ،

وتباهيهما بماضيهما وحديثهما عن المعجزات التى أحدثاها أو شهداها كأنهما يعيشان فى عصر غير عصرهما يحسان أنه أدنى منه ، وبالتالى هما أسمى من معاصريهما . وأخيراً يصورهما لنا وفيين يتحدثان عن اخوانهما فى حب وحنين واعتراف بالجميل وتقدير للمواهب والعبقريات .

(ج) ألبطلات

١ — بينيلوبيا :

لكى نلتقى بأخلاق بينيلبيا الحقيقية يجب أن ننقب عنها فى الأناشيد القديمة لأن المنتحلين لايتحرون الدقة فى التصوير كما أشرنا إلى ذلك مراراً . ونحن إذا تعقبنا هذه الأناشيد ألفيناها فيها تكاد تكون نموذجاً يحتذى : أمينة فى حبها ، وفية لزوجها ، ثابتة على عهدها ، عطوفة على ابنها ، محافظة على شرفها ، متمسكة بكرامتها ، قابضة على السيادة فى قصرها ، لا تتخلى عن شىء من سلطتها لكائن من كان ما عدا ابنها ، فإننا نشاهدها دائماً تذعن لأمره ، وتنزل عند إرادته ، ولا ندرى أكان هذا من جانبها حناناً مغالياً أم إتقاناً فى التربية تقصد به أن تعود هذا الأمير الشاب على أن يطاع دائماً حتى من أكبر شخصية بعد والده ، أم مجاراة للفكرة القديمة التى كانت تخضع المرأة مهما كبر شأنها للرجل مهما صغرت سنه وضؤلت قيمته . وعلى أى حال من هذه الأحوال الثلاث هو منظر يروق النفس . ومن أبرز خصائص هذه السيدة : التبصر الذى غالى المؤلف فى وصفها به مغالاة جعلته أقرب من أى شىء آخر إلى الحذر وفقدان الثقة من كل من يحوطها ، وليس أدل على هذا من موقفها ساعة التعارف مع زوجها واحتياطها حتى فى الأحبولة التى نصبتها له لتسبر بها غوره ، فلم توجهها إليه ، بل وجهتها إلى المرضع على مسمع منه ، ولولا أنه كان قوى الذاكرة ، حاضر البديهة لما فطن إلى ما تريد ، ولهوى فى ذلك الفخ فتعقد الموقف أكثر من ذى قبل بسبب إفراطها فى الحذر .

بيد أنها إذ تتحقق من شخصية زوجها تعتذر إليه من مغالاتها فى الحذر ، وتبين له الأسباب التى حملتها على تلك المغالاة فتقول : « لا تسخط علىّ يا أوديسوس ، وأنت أكثر

الناس تبصراً . إن الآلهة قد أرهقونا بالآلام ، وحسدونا على سرور التمتع معاً بالشباب وعلى الوصول معاً إلى عتبة الشيخوخة ، فلا تسخط علىّ ولا تؤنبنى على أنى لم أبادر إلى معانقتك حين رأيتك ، فنفسى تضطرب فى صدرى خشية أن يجىء إلى هنا رجل فيخدعنى بكلماته ، لأن كثيراً من الرجال يبيتون حيلاً خبيثة . إن « هيلينيه » الأرجوسية ابنة زوس لو عرفت أن أبناء الأكيان الشجعان سيعيدونها يوماً إلى دارها فى أرض الوطن لما ارتبطت برباط الحب مع أجنبى ولكن إلاهاً دفعها إلى هذا العمل المخجل ، وهى لم تطرد من قلبها هذه الفكرة المشئومة الفظيعة التى كانت السبب الأول لشقائها وشقائنا ، وها أنت ذا الآن قد صرحت لى بالأمارات المؤكدة لنا فى سريرنا والتى لم يرها أى إنسان ، وإنما نحن الذين رأيناها وحدنا أى أنت وأنا وخادمتى « أكتوريس » التى منحتنى إياها والدى حين جئت إلى هنا والتى كانت تحرس باب غرفة زفافنا . وأخيراً أنت أقنعت قلبى ولو أنه كان مفعماً بالحذر[1] » .

ومن هذه الميزات أيضاً ظهورها بمظهر الكرامة والعظمة حتى فى أحرج المواقف وأشقها ، فهى حين تروى للشيخ السائل قصتها لا تنزل من مستواها الطبيعى ولا تجارى العامة فى الظهور بمظاهر المهانة والضعة ، وإنما هى تسود نفسها ، وتملك أعصابها ، وتضبط عواطفها ، وتحافظ على مكانتها الاجتماعية محافظة تامة . ومن آيات هذا السمو أنها تضع مبدأ الرهان بين الأدعياء وتفرضه عليهم فى جلال يقهرهم على الإذعان لرأيها والرضوخ لفكرتها .

الآن و بعد الذى أسلفناه من أخلاق پينيلوپيا نستطيع أن نجزم بأنها تشبه أندروماخيه فى الإلياذة فى بعض نواحيها ، فكلتاهما جميلة محبة لزوجها ، رءوم على ابنها ، مترفعة عن مجاراة العامة ساعة تزول الكارثة تسمو بنفسها عن مواطن الضعة والإسفاف حتى فى أشق الظروف وأحرج المواقف .

---

(١) انظر الأنشودة الثالثة والعشرين .

٢ — نوسيكا

هى ابنة الملك ألكينوؤوس ، وهى أهم الشخصيات النِّسَوية فى الأوديسا بعد پينيلُپيا . وأول ماينبغى أن نشير إليه عند حديثنا عنها هو أنها ليست شخصية تاريخية ولا هى من بطلات الأساطير الهيلينية ، وإنما هى من مبتكرات الشاعر البدائى وخلق خياله كوالدها نموذج فى كثير من المحامد كالحسن والرشاقة وخفة الروح والدقة والخيرية والحياء الممزوج بقوة الإرادة وصلابة العود . ولهذا حين تقع عينها وأعين صواحبها على أوديسوس أشعث الشعر عارياً يحاول الاستتار بأوراق الأشجار ، وعلى جسمه طبقة من زبد البحر تفر كل الفتيات هلعاً وذعراً من منظره وتبقى هى وحدها مفعمة القلب بالشجاعة ، مليئة النفس بالكرامة ، تستمع إلى توسلاته ، وتطمئنه على مصيره فى وداعة ورقة . وعندما يستحم ويلبس الملابس التى قدمتها إليه تتأمل فى وجهه بإعجاب ثم تنحنى على رفيقاتها وتقول لهن فى تلك السذاجة اللذيذة التى هى من خصائص الشعر الهوميروسى مايلى :

« إستمعن إلىَّ ياصديقاتى العزيزات ليس بدون إرادة الآلهة الذين يقطنون الأولمپوس أن يكون هذا الأجنبى قد وصل عند الفيكيان الشبيهين بالخالدين . منذ لحظة كان يبدو لى دميماً ولكنه يشبه الآلهة الذين يثوون فى السماء الواسعة ، فلتنشأ الآلهة — وهذا شأنه — أن يريد المقام هنا ليصير زوجاً لى وأن يروقه الاستقرار فى هذا البلد[1] » .

ولا يكتفى المؤلف بهذا المنظر المؤثر الذى نشاهد فيه آمال هذه الفتاة تتفتح تفتح الزهور فى فصل الربيع ثم لاتلبث أن تذوى أمام تصميم أوديسوس على العودة إلى وطنه ، وإنما هو يقدم إلينا منظراً آخر أشد تأثيراً وأكثر فتنة وسحراً ، فيرينا نوسيكا ساعة رحيل هذا البطل واقفة على مقربة من باب القاعة تحدق إلى أوديسوس معجبة به وتخاطبه قائلة « وداعا أيها الأجنبى ، أرجو وأنت فى وطنك أن تذكر يوماً تلك التى أنت مدين لها بسلامتك[2] » .

---

(١) انظر رقم ٢٣٩ وما بعده من الأنشودة السادسة .

(٢) انظر رقم ٤٥٨ ومابعده من الأنشودة الثامنة .

٣ — هيلينيه

هى تلك التى رأينا فى الإلياذة أنها كانت مأتى كل الرزايا والنكبات ، ولكنها هنا تختلف عنها هناك ، إذ يصورها لنا مؤلف التيلياخوسية وقد عادت إلى دار زوجها وزال من بينهما سوء التفاهم وجعلا ينعمان بحياتهما الراهنة دون أن يسمحا للماضى أن يطوف بحاضرهما ، فيحدث فيه اضطراباً بما يحمله بين طياته من ذكريات مريرة ، وإذا ألمعت هى إلى تلك الحادثة المحزنة لتقف نفسها موقف الجانية ، بادر هو فعزا كل هذه الكوارث إلى الآلهة وبرأها منها .

ومن مميزات هيلينيه هنا بشاشتها وحسن أخلاقها ، ولطف لقائها ، وإمعانها فى إعزاز تيلياخوس وإكرام رفده .